(٨٣)

إشراقات جديدة

صرخة

قصة

حياة الحضرى

دراسة :

د. مدحت الجيار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٤

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

صرخة

ذات ليلة. من ليالى حالكة السواد ـ حيث شعورى بأن كل ما يحدث حولى خارج عالمى لا يخصنى.. وأحيانا فى لحظات الوهم أو الوعى سمها ما شئت، أتوهم ما يخصنى.. زارتنى أختى بعد أن افتراقنا بالزواج.. صار كلاً منا له بيت خاص.. ضمتنى بحب بحنان.. ولم ينطق كلانا بكلمة وبعد أن شعرت بهدوئى، أرادت أن تعود لمنزلها.. تشبثت بها كالطفلة.. تمنيت لو تأخذنى معها.. أو تمكث معى.. تحسست شعرى وسألتنى بحنو ماذا بك؟!!

قلت لها أننى أحبه ولا أصدق مشاعرى لخوفى من هذا

الحب.. بهرتنى سطوة غضبة الوحشى المفاجئ.. غزواته العدوانية غير المبررة..

يداهمنى إحساس ما بأن ما سمعته عنه ربما تهاويل.. أحسست بصوت مجسم أحاطنى من كل اتجاه.. أنت تتوهمين.. أقسمت أننى أحبه.. عقلى قلبى جسدى.. معه وبسخرية منها. هو شخص لا يقبل الحوار ولا المسائلة ولا الجدال..كذا لا يحب أنصاف الحلول.. وإذا أردت الاقتراب منه لابد أن تتنازلى عن كل شىء من أجله.. ثم استطردت قائله:

جربى أن تصرخى بأعلى صوتك.. أو قومى صلى واسجدى لسيدك.. أو اذهبى إلى البحر الطاهر وآجلسى بجوار الشجرة المقدسة المباركة التى بجواره.. أقرئى الأذكار.. جينئذ ستتحرر روحك وتحدث المعجزة وتعود إليك روحك السليبة.. ما كان على إلا أن ذهبت للبحر الطاهر وجلست بجوار الشجرة المقدسة وتباركت بظلها. وأخذنى البحر وأمواجه المتلاحقة تأملت هذا السباق الجارف لهذه الأمواج التى تصارع البقاء. لحظات وشريط حياتى يتجسد

أمامى يومًا بيوم.. يتوالى أمام عينى ووجدتنى أعود لأختى بالسؤال.. لماذا طلبت منى التواجد فى هذه البقعة بالذات؟!

أتريدين التطهير لى.. أم الجلد لنفسى وروحى؟!!!

ولم أنتظر الإجابة منها.. ولم أتحمل البقاء وانتفضت واقفة للعودة.. وإذا بصوت أختى يرن داخلى محرضا لى.. اصرخى.. اصرخى بأعلى صوتك.. أختاه وإذا فشلت!! لا يا حبيبتى لن تفشلى نعم سأصرخ وستخرج من صرخاتى كل أحزانى الصدئة.

حاولت أن أصرخ دون جدوى فلم ينطلق صوتى وانعقد لسانى داخل فمى.. درت حول نفسى فى غضب كان الشاطئ خاليا من الناس حتى الطيور تركته.. ووجدتنى وحيدة به.. أريد العودة.. لكن مشوار العودة طويل وموجع.. صوت هادئ ينساب بداخلى يقول: ارمى بنفسك فى أحضان هذه الأمواج. كونى موجة وتسابقى معهم.. فإما الحياة وإما الموت.. تجاوب عقلى لهذا الصوت.. وبدأت

ابتعد عن الشاطئ وأدنو من البحر.. ووجدتنى وسط هذه الأمواج المتلاطمة أعاركها وتعاركنى بقوة ثم مرة ثانية جاءنى صوت أختى يقول لى: اصرخى.. اصرخى بأعلى صوتك علك تتحررين وتتفك قيودك وأسرك. هذه الكلمات موجهة إلى؟!!

ثم عدت إلى الإصغاء من جديد وسمعتها تقول: اصرخى.. اصرخى بأعلى صوتك ـ كان عليها أن تدرك أننى لا أقوى على الصراخ أبدًا...

قالت مرة ثانية: إذا لم تصرخى فاسجدى لسيدك عله يعفو عنك.. استمر عراكى مع الموج.. وظل صوت أختى يتقدمنى طوال الوقت وفجأة ساد الصمت حولى، ولم أعد أسمع صوت أختى.. فصرخت.. صرخت بأعلى صوتى.. لاتتركينى وحدى أريدك بجانبى.. ونظرت حولى فلم أجدها.. نظرت مرة أخرى على المكان علِّى أجدها عند بداية الشاطئ.. سمعت صوته من بعيد ينادينى بخشونة؟؟

بيان مرجة إلى سيدة الشاطئ.. نعلن عن عفونا الكامل

وجبنا وقبولنا لك.. عودى إلينا..

الماء حولى يزحف ببطئ.. أبحث عن الصوت لأحتضنه بفرح.. حيرتنى فرحتى وأدهشتنى.. فأنا منذ زمن طويل لم أعرف هذه الفرحة.. إحساس بداخلى يقول لى:

لماذا فرحت الآن؟!!

ترانيم حزينة

عرفته لحنًا حزينًا.. يحمل جراحه وهمومه على كتفه ويبسطها على الشارع الترابى.. أشد ما يميزه صمته وعشقه فى التجوال فى أحياء كثيرة وبعيدة ليس لأقدامنا مكان فيها.. هو محب لما كرهناه.. ويضع أحزانه لفقدان زوجته وشريكة حياته وعمره فوق ظهره فى ذلك الصباح الرمادى.. غطى جسده الهزيل بمعطف صوفى غامق اللون ثم اتجه إلى ركنه الأزرق البارد، وما أن افترش ملاءته الخضراء حتى بدأت قطرات المطر تدغدغ رأسه، يلف ملاءته ويلقيها على ظهره تولول السماء ويفتك المطر

بالأرض النائمة.. يغنى ترانيم جميلة للبقاء ليطرد بها هواجس الهجر والنجوم اللامعة فى سمائه.. والأطفال يمرون من أمامه يركلون بقع المطر الممتدة على الأرض بأقدامهم.. ونقط الماء تتطاير بعضها على وجوههم وملابسهم ويضحكون وحين يمر من أمامهم يصمتون فيمسح وجوههم المبتلة.. يرتعشون مطر ينزل من السماء يزلزل الأشياء.. وبيته جدرانه تتداعى.. جدران من الطين فترسم خطوطه متعارجة.. يبكى ويبكى ويحاول أن يصد السقوط السحيق فيلتحم بصدورر الأطفال فيحتضنونه.. ويرقصون ويغنون معه أغنية حزينة.. ثم يودعهم ويودعونه ويقبلونه وينصرف بعد توقف المطر..

وتشرق الشمس فى سماءه.

لعبة الأيام

امتنع يومين عن التدخين حدادًا على السماء التى لم تعد تمطر كعادتها فى مثل هذه الأيام.. وفى اليوم الثالث.. وجدته واقفًا أمام البحر ينظر بل يحملق فى الماء والصيد.. ودون مقدمات قلت له: ما الذى فعلته بنفسك يا حبيبى سوف يأتى شر لابد منه.. سواء جلست القرفصاء أو تمددت.. اقتربت منه أكثر من الرمال الملتصقة به.. وأشعلت له سيجارة.. رفض بشدة وقال لى: أنه قاطع السجائر منذ يومين.. وظل يحدق فى المساحة التى تلتقى

فيها المياه بالسماء.. ثم أردف قائلاً:

من هناك تأتى إلينا البشائر.. أما قرأت على بوابة المعرى وأثناء الدخول إليها هذه العبارة مكتوبة:

من ساءه أو هاله عجب فلى

ثمانون عامًا لا أرى عجبًا

الدهر كالدهر والأيام واحدة

والناس كالناس والدنيا لمن غالبًا

صار بجسدى رعشة شديدة وتوثقت قبضتى بالرمل وقرأت وجهًا عتيقًا فى ذاكرة المتاهة وجوه وعربات الخيول ولوحة النوم ورجال يأتون من البحر بمنجنيقات ورايات القراصنة وسمعته يقول وكأنه يناجى اللامحدود:

أزرعينى أيتها الرغبة توحدى فى الماء وأحدثى ارتباكًا فى المنظر البحرى ثم يمضى ببلادة تثقله أقدامه كخف جمل فى طريق صحراوى طويل.. ويستحضر هموم الترحال وبين الشرفة والمكتبة يحرق أساطير البحار..

أشعر بسريان ثلجى كلما أحاول دخول أى ميناء مفتوح..

تقلقنى؟؟ السـحب.. وأجـده يدفع رأسـه داخل الأعـلام المنكسة وأنا معه.. حداد اليوم راحل من عمرنا المحدود وتنهزم الأفكار.. وبحركة لا إرادية أدخل يدى فى جيوبى التى لم تكن موجودة تنهار مدن وتنهزم أفكار واستمتع بحركة المارة وعراك العصافير فوق شجرة الوهم المجاورة للأفق..

أكرر المحاولة من جديد ومرة أخرى تنهار أسوار حدودى وينتهى اليوم ولم يعد أمامى سوى حصار الجبال الرملية الكالحة.. وأصوات غاضبة فى وادى الملوك تحاصرنى...

حلم الفرح

دخلت أمى الحجرة.. حجرتى واسعة وسقفها عال.. أخذتنى فى حضنها وقبلت جبهتى وضحكت فى وجهى وقالت لى بصوت كله فرح: أنت كبرت وبقيت شابة زى القمر ما شاء الله وأعطتنى فستانًا أبيض.. قلت لها: الله يا أمى.. أهو لى؟.. نعم لك يا عمرى جميل.. جميل جدًا يا أمى؟

كان الفستان مشغول بالماس والياقوت واللؤلؤ وكأنه مصنوع من كل الجواهر التى وجدت فى مغارة على بابا

أماه

أريد أن أرتدى هذا الفستان.. نعم يا حبيبتى أريد أن أراه عليك فهو فستان عرسك.. بسرعة رأيتنى أرتديه كان طويلا عارى الصدر ملىء بالكرانيش ووضعت أمى على رأسى ترحة بيضاء طويلة بطول حجرات منزلنا الواسع.. ووجدت مربيتى واقفة أمام باب حجرتى ممسكة بالبخور وتدعو لى بالسعاة والفرحة..

وأنا سوف أكتحل بكحل النساء الأسود، هذا الذى تتزين به أمى وسوف أمشط شعرى الطويل وأطلقه على كتفى.. لن يكون ضفائر بعد اليوم ولن أسجنه فى رباط أو طرحة وحينما يتزوجنى عريس سوف يمنحنى طفلا .. سأتشبث به نعم فهو ابنى وطفلى الحبيب.. فأنا أحلم بآلاف الأطفال منه. وسوف أضمه إلى صدرى وأغنى له أغنية غنتها لى أمى وأنا صغيرة ثم أهدهده على سريره حتى ينام.

ياله من زوج جميل منحنى كل هذه الفرحة والسعادة سأعطيه كل صناديق السيوف والحراب التى فى منزلنا.. اليوم سيحملنى على حصانه الأبيض ونهرب من كل عيون الدنيا الجياع والغزاة وسنبتعد بعيدًا حتى عن أسواد

مدينتنا.. سأحافظ عليه فى داخلى وإذا مرض منى سأملأ كفى بوجهه وأضع فوقه كل الأغطية وأجلب له العقاقير والأعشاب من العجوز الساكن فى التل البعيد

رأت أمى فرحتى فضحكت.. أنا أحبك جدا يا أمى

وأنت ابنتى الجميلة

ولكن أين أبى وأخوتى الرجال.. أين عريسى؟!!!

أماه

هذا فستان الفرح.. لكن أين الفرح؟!!

زهرة الموت

فى المساء ملأ يحيى رأسه بالحزن وانتشى ثم أراح رأسه الحزين على جدار مدفن مدفون به صبية صغيرة مكتوب على قبرها:

يا زائرًا قبرى لا تعجب من أمرى بالأمس كنت مثلك وغدًا ستكون مثلى قل بها يصوت مكسور:

يا أجمل الموتى قبرك بلا زوار.. وأنت وحدك بلا قريب يزوجك منى. كفنك الأبيض سيكون فستانًا لعرسنا.. والورد الذى على قبرك سأصنع لك منه تاجًا يزين رأسك.. لن أتركك وحدك سأعيش معك فى مدينة الموتى.. وأحاط

المدينة بأسوار من الأسلاك العالية.. وأقام عرسه فى حديقة المدينة حيث جلست جميلة الموتى بجواره وتمايلت حولها الورود صانعين لحنًا جنائزيًا راقصًا فى عرس كبير ملأت حكاياته الخرافية مدائن الأحياء كلها.. وعلمهم كيف يزرعوا الورد فى قلوبهم كى يحبوا كان يحيى يعلم لغة الورد منذ طفولته وسر الموت ولأنه لم يعرف فى حياته غير الورد والموت فقد كانت جميلته التى اختارها عروسًا له بين الورد وبين الموت أحبها.. يهجم الأحياء على قبرها فى مواسم الرحمة والذكرى يبكون دمعًا وينثرون زهرآ ثم يرحلون ويبقى قبرها عاريا من الورد والدمع

ذكريت طفلة صغيرة

رسمت له صورة بداخلى.. وأضفت إليها صفاتًا إنسانية زادتها جمالاً وألفة.. وتخيلته بعد أن وضعت له شكلا كاملاً واستشعرته فارسًا من فرسان الزمن الجميل.. فهو فارس أحلامى وانتظرته يأتى ويأخذنى إلى المدينة الفاضلة التى لا تعرف سوى الحب والخير والسلام كل ما فيها آمن وجميل. وطال انتظارى خبأت صورته فى أعماق قلبى خوفًا عليها من الضياع.. وكلما استبد بى الشوق لرؤيته.. أخرجتها من داخلى وأنفض عنها غبار الانتظار.. واحتضنها وأعيش الحب فى مدينة أحلامى. بمع مرور

الأيام توارى حلمى وأصبح ذكريات ودخلت معركة الوجود وخضت حلم الحياة والنجاح.. وصرت موجة سابحة مع تيار الدنيا واليوم تذكرته.. صرت كالمحمومة أبحث عنه فى خبايا قلبى.. فأنا محتاجة إليه أريد استرداده فى الحياة.. وأخيرًا وجدته فى طيات النسيان ولكنه موجود.. والتقيت به فارس أحلامى وقررت أن أحبه وانطلقت فى الشواره ابحث عن آخر شارع فى الكون وعن بداية مطلع الشمس وعن أول قلب علمنا الحب.. وقررت أن أهاجر معه للمدى المتباعد ونبنى بيتنا الجميل فى منتصفه وعندما دققت نظرى له وجدتنى لا أحبه فهو يشبه رجل كرهته.. فكرهته..

وفى الصباح حطت عصفورة على زجاج نافذتى ودقت بمنقارها دقتين وزقزقت.. وأنا كنت أبكى حزينة..

وفى اليوم التالى جاءت العصفورة نفسها وزقزقت ودقت على نافذتى.. فتحت لها الشباك وحكيت لها عن حزنى.. سمعتنى وطارت بعيدا..

فى اليوم الثالث فتحت لها النافذة كى تدخل عندما تأتى ولكنها لم تأت..

مالى أنا ومال هذا الحزن..

الوجوه التى أراها حزينة فى الصباح.. وفى المساء.. وانتظرت عودة الأحاسيس عودة المشاعر الحية لتدرأ عنى نوبات الحزن.. وانتظرت فارسى الذى رسمته وأنا صغيرة وخبأته حتى أكبر..

ومازلت أنتظره فأنا أحبه وأريده الآن.

سنتقابل فى السماء

فى يوم من الأيام الخالية وأنا صغيرة أنام على صدر جدتى العجوز وكعادتها تحكى لى الحكايات الجميلة والمشوقة..

قالت لى جدتى:

كانت لها أخت كبرى مازالت تعيش فى القرية مع زوجها وأولادها.. وشدها الشوق كى تراها وتسعد رؤياها بعد أن مضى وقت لا يرى كل منهما الآخر، وظلت تراودها فكرة الذهاب إليها.. ولكنها فكرت فى أن تطلبها للحضور إليها بالقاهرة.. وتشجعها للحضور لزيارة أولياء الله الصالحين الحسين، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة وطلبتها عبر الهاتف..

وردت أختها عليها.. وبادلتها شوقها وحبها فى اللقاء وزيارة آل البيت ووعدتها بالحضور إليها بعد أسبوع..

ومر أسبوع وآخر.. ولم تحضر أخت جدتى.. فقد ماتت بعد يومين من مكالمتها لأختها..

وبعد شهر من المكالمة.. قامت جدتى وطلبت أختها لتطمئن عليها وتعرف أن المانع خيرا رد عليها أبنها الأكبر ورحب بها وقال:

لقد بعثنا أمنا إليك..

فرحت جدتى وهللت للقاء أختها.. وظلت اليوم كله فى انتظار أختها الحبيبة.. وصنعت ما لذ وطاب من أجلها..

ومضى اليوم كله ولم تحضر..

فى الصباح أرسل أحد أبنائها برقية إلى جدتى قائلاً فيها:

خالتى الغالية نبلغك بكل الأسى والحزن أننا بعثنا أمنا إلى القدس الشريف وكانت آخر كلماتها

سنتقابل جميعا فى السماء

● تمت ●

قلب أم

قضت الأم عشرة أعوام فى انتظار أصغر أبنائها حتى يعود من سيناء.. فقد أختفى أثناء حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل.

قيل أنهم أخذوه أسيرًا .. لكن لم يتأكد أحدا من هذا .. لكن قلب الأم مازال ينبض ويحلم بعودة أبنها .. أمل عميق وضخم يراودها ..

ظلت الأم عشرين عامًا تطل من شرفتها على الشارع الكبير.. طوال يومها تراقب السيارات والأتوبيسات المارة فى كل الاتجاهات عسى أن يكون أبنها واحدًا من ركابها، ومع كل

سيارة تراها على بعد تهتز مشاعرها ويخفق قلبها بشدة كلما اقتربت منها.. وتتخيل أن أبنها سينزل من إحداها.. ومازالت السيارات تمر.. والأم يستريح قلبها لحظة.. فأملها فى رؤية ابنها هى الغاية الوحيدة التى تربطها بالدنيا..

وفى إحدى الأيام وهى واقفة بشرفتها تطل على الشارع.. رأت تصادم بين سيارتين وكلمح البصر وسرعة البرق. أسرعت إلى الشارع مهرولة إلى السيارتين ونبضات قلبها تدق بأعلى صوت

ظلت تنظر وتدقق فى الأشخاص.. لم تر أبنها..

وبسرعة تسائلت من الذى مات؟.. ومن الذى جرح؟

لم يكن هو؟

أى راحة نفسية غمرتها.. أى حظ سعيد كتبه الله لها..

نظرت حولها وأشرق وجهها وهدأت أعصابها ثم رفعت يدها إلى السماء شاكرة الله. حامدة فضله

الآن وفى هذه اللحظة أطمأنت لمعجزة السماء بأن الله أنقذ ابنها مرة أخرى من الموت وحفظه لها

ومازالت فى شرفتها مستمرة فى انتظار عودة ابنها سالمًا.

نداء المجهول

اقتربت منى العجوز ذات الملامح الميتافزيقية وهى تحمل جرابها الذى لا لون له فهى كتلة ترابية متحركة على الأرض.. أشارت إلى بحزم - أشوفلك بختك يا شابة - أخذتنى الدهشة والفضول واستسلمت.. جلست أمامها وضعت يدها اليمنى بقوة فوق رأسى وضغطت عليها. فأكثر من مرة حاولت تجاهل هذا النداء الذى يؤرقنى ويمتزج بأحلامى كلما غفوت، فزعه أنهض من فراشى ويرتفع صراخى.. هذا الحلم الذى يطاردنى فى المساء ويهرب منى فى الصباح.. لذا استسلمت بكل الضعف والخضوع لهذه العرافة العجوز وبصوت ملؤه الرهبة

أعطتنى قوقعة بحرية وقالت لى:

وشوشى الدكر يا شابة.. سألتها وأين هو الدكر؟!

أخرجت من جرابها منديلا كبيرًا فرشته على الأرض.. عليه رمال صفراء وبلهجة آمرة قالت مرة أخرى: وشوشى الدكر يا شابة..

أين هو مازلت أسألها!!

مدت يدها اليسرى فى الجراب وأخرجت أنثى عنكبوت وسمكة حية وبعض القواقع البحرية المتعددة الأشكال وحية منزوعة سمها ظلت تتحرك فى كل الاتجاهات بلا انقطاع.. وشوشى الدكر يا شابة..أين هو؟

وكمان عامية ومش شايفة.. أنت حالتك صعيبة...

ارتجفت من قسوة مشاعرها نظراتها وصوتها.. وبهمس يشبه الفحيح تلقى فى أذنى كلمات سريعة غير مفهومة ثم أردفت قائلة: قليلة البخت والزمن مايل الدكر مقامه عالى ومهره غالى.. لا أستطيع الحركة.. أنت ليه مماكسة أسيادك يا شابة؟

ها أعدلك الحال واعملك حجاب يحميك من الهم والغم وحقد الناس تقفز الحية فى حجرى، افزع. لا أتحرك!!! الرعب يتملكنى أحاول الاعتدال فى جلستى تشدنى وتأخذنى إليها مرة ثانية. ارفع رأسى تستقبلنى ابتسامتها الغامضة النبى حارسك.. الروح ردتها لك.. طاقة نور ومن عنيكى بانت وشك مورد بعد العفو والسماح من أسيادك الملاح

تمنيت لو أن معى مرآة الان كى أرى دفقة الدم الجديدة فى روحى المرتدة وبابتسامة ساحرة هادئة تذكرنى

بياضك يا شابة

الرجل المسحور

تركت بيتى والطريق وغيرت الشوارع والليل والنهار.. ولكنى فى كل الطرق التى أسير فيها كان يفاجئنى ظله بجوار ظلى.. و،أحيانا لا أرى ظلا لجسدى وألمح ظله. ظللت أبحث عن سر هذا الرجل فى كل مكان ووجدته نائمًا على إحدى الأرصفة!! قلت له يا عم قل لى من أنت؟ ظل ينظر إلى ويبتسم. ثم بكى طويلا.. خفت منه جريت بسرعة من أمامه وعيناه تلاحقنى.. هربت من الطريق العام، واختبئت فى مكان بعيد.. ثم نظرت إليه فوجدته أمامى يبتسم فهربت إلى حائط معتم ومع ذلك لمحت ظله بجوار ظلى.. ذهبت مسرعة إلى جدى العجوز وأخذنى بين

ذراعيه واحتوى كل مشاعرى وهدأ من روعى.. حكيت له ما بى قال جدى: لا تخافى منه يا صغيرتى فهو رجل مبروك يقرأ الطالع ويفسر الأحلام ويفك العكوسات.. هو رحالة لف بلاد الدنيا وتعلم السحر وعالج الناس من العقم بالتمائم وأخرج الكثير من العفاريت والعياذ بالله التى لبست بعض الناس.. وهو زوج لامرأة إفريقية سوداء ترتدى العقود الكثيرة والأحجار وشعرها كثير الضفائر تدق على الطبول بمهارة من اجل إخراج العفاريت التى لبست بعض النساء وتركت جدى فى الحال وذهبت إلى مكانه مسرعة.. لم أجده.. بحثت عنه فى كل مكان قال لى الناس:

أنه مات منذ ساعة.. مات الرجل المسحور.. ولكن ظله مازال يلاحقنى

نغمات هامسة

عشقته بكل ما لديها من قدرة على العشق، فهى امرأة مكتملة الأنوثة.. كل من حولها يندهش لتدفق مشاعرها وفرحتها والمراهقةحين لقائها به..

حفرت له متسعًا فى أحضانها بحجم طوله وعرضه، بجنون تبحث عن بقايا أنفاسه بين وسائدها باحتياج كل ذرة فى جسدها إلى لمساته ظلت تقلب فى أدراجه علها تلمح إحدى ضحكاته التى لم تزل مخبوئه بين أشيائه.. فى كل لحظة تنتظره ليدخلها ويملأ فراغ روحها. وحدها فى

مدارات المتاهة والحنين تغمض عينيها.. تتراقص على نغمات هامسة وتوقظها برودة الوحدة، تريد أن تلقى رأسها فوق كتفه وتشب بقدمها وتنحنى قليلاً فتتلاقى شفاههما ولكن دائمًا لا يتلاقوا.. وتفتح عيناها تواجهها صورته والسخرية!! ومئات التفاصيل تحاصرها وتغلق أمامها كل منافذ الخروج من الحنين إليه وتتذكر أول كلمة ولمسة وموعد وقبله وشارع وأغنية وبالصمت تلوذ.. أين ذهب كل ما كان بينهما؟!!

تلعن نفسها دائمًا.. حبه اختلط بجينات تكوينها فأين ذهبت هذه الجينات وكيف أتته القدرة على تغيير كيمياء روحه كما كانت تسميها؟!! ويدفعه فضوله لمعرفة أحوالها العاطفية ويستدرجها للاعتراف نعم مازالت تحبه.. وفشلت فى تنفيذ ميراث نصائح الأصدقاء بالنسيان ومازال يستجوبها أما زالت تحبه؟

أقسمت بالله العظيم أنها تحبه حب جنون وأقسمت لها عيناه أنه كاذب وماذا عن المستقبل الذى لا مكان ولا وجود

لها فيه؟ فهى أصبحت ظلاً باهتًا فى حياته يحاول إثبات قوته الجسدية ليحرز آخر انتصاراته وأوهامه وليسجل انتصاره الساحق فى سجل أنوثتها وهى تبتلع المرارة.. مرارة الألم فمازال يؤلمها ابتعاده عنها...

وبنظرة ساخرة على غبائها.. تحمل آلامها وأسئلتها وتمضى وتودع صمته بسخريتها.. لأنه رجل يعيش حياته.

مجرد بنت

فى البداية اعترضنا كثيرا. ولكننا اقتنعنا أخيرا أننا بنات فسكتنا.. رفضت الطريقة والتفكير ولكن كل ما حولى أجبرنا على ذلك.

نعم بنت مجرد بنت.. أى أنثى.. وأنا أتشبث بالمساواة.. لأننى إنسان نظرات ذلك الرجل الذى مر من قبل قليل.. ثم نظرات رجل أخر.. نظرات أخرى.. وأنه قرار المسئولون - والمسئولون جمع مذكر سالم خال العيوب. وهم أولياء الأمور.. هم غير قابلين للمسائلة.. ألا أتحرك كما يتحرك أخى.. فهم يوفرا لى طريقة أكثر احتراما للوصول إلى مدرستى فالسيارة تأخذنى من أمام بيتى وتصل بى إلى

باب مدرستى وهكذا العودة.. هكذا قرر المسئولون.. ولكن ما حولى أجبرنى على الموافقة..

جريدة اليوم تطرح نفس الموضوع.. للمرة الألف نفس الموضوع.. ولكن هذه المرة المناقشة من قبل امرأة.

مسكينة نسيت أنها بنت.. أما أنا فلن أنسى رغم الهواء الخانق والنظرات التى كنت أعانى منها قبل قليل أننى بنت.

سلام عليكم.. جاءنى الرد من المطبخ سلام عليكى يا حبيبتى ودخلت إليها مباشرة وكانت على فمها ابتسامة وقلت ملاطفة..

ماذا سيكون الغداء؟.. كنت سأضيف يا أمهر الطباخات أو يا ست الحبايب حالتى النفسية وتجهم وجهها منعانى.. خيرًا هل هناك جديد.. كانت تعرف أننى أريد أن أتحدث لكنها قالت وهى ترفع غطاء القدر.. لا.. لا شىء..

طلبت منها البارحة أن أفتح معها الموضوع وأحاول إقناعها.. لكن ملامحها.. لا تبشر بخير أين هى؟ فى الغرفة - أجابت فورا.. بدأ جيدا أنها قطعت جملة كانت

ستقولها.. غاضبة؟! تسألت مع نفسها.. والله لست أدرى ماذا لبنات هذه الأيام.. نقول يمين تقول شمال يقولوا يمين..

اقتربت منها جيدا وقلت بصوت خفيض ورأسى يلامس شعرها.. ماما المسألة لم تكن لا يمين لكنها حياتى.. نعم حياتى..

بدأ وكأنها لا تسمعنى.. ابتعدت عنها وهى تقول أبوك وأخوتك الرجال أيضا موافقون.. أحسست بحالة من الهلع كدت أصرخ.. مالى أنا ومال آرائكم.. حياتى غير قابلة للمناقشة والمداولة.. ولم أستطيع أن أكمل الحوار.. و خرجت من حجرتها غاضبة.. وبعد قليل.. فتحت على باب حجرتى فوجدتنى ساهمة شاردة أفكر.. قالت بجدة أنك نسيت أنك بنت.

نظرات إيها وقلت بتحد غريب سأتزوجه.. سترين.. أريكها هذه الحرارة والتحدى. وخرجت وأغلقت على الباب حجرتى..

هل أنا أحلم.. فأنا مجرد بنت.. بنت.. بنت.. بنت.

ماما.. أنت أمى التى منحتنى الحياة وعلمتنى الحب.. أنا لن أكون مثلك ولكننى سوف أتميز.. فهذا قرار.. من بنتك الصغيرة.. وتحدى تجاه هذا الموروث الاجتماعى.. وكان..

فى يوم أخر على الغذاء قلت.. الأسبوع القادم. سيتقدم إليكم ليطلب يدى تلاحقت الأسئلة والنظرات من؟ ومتى؟ وأسئلة أخرى..

أجبت عليها مع بعض التعليقات. ثم قالت أمى لن تخرجى من المنزل اليوم وحدك.. ستخرجين معى.. أو مع إحدى أخوتك الرجال طبعا.. هذا كلام واضح وغير قابل للمناقشة؟ أو المسائلة.. قمت وأنا أغسل يدى كانت أختى التى تصغرنى تهمس لى.. سترافقك فى كل مكان قلت لها لن أذهب معها أبدا.

على العشاء.. لفت انتباهى غياب أخى الكبير محمد.. أين محمد؟ سألت سافر.. وحده!! ماذا تقصدين؟!! أقصد

لم يرافقه أحد؟!! نظرن إلى أختى وضحكت دون أن يراها غيرى.. أما هم فقد أجابونى أنه ذهب مع أصدقائه.. قمت قبل أن أكمل طعامى.. فقد فقدت الشهية.

فى صباح اليوم التالى.. أردت أن أخرج مع إحدى صديقاتى.. نذهب إلى النادى.. قالت سأذهب معكى.. قلت سأتضايق أنا.. أريد أن أذهب وحدى.

أنا لا أفهم.. أنت تخافين على أم.. قالت نعم أخاف عليك

قلت لها إذن أنت لا تحبين أخى.. لم ترد.. إذا لماذا لا تخافين عليه؟!!

قالت أنت بنت

يمتلئ صدرى بالدموع.. ولكنى لن استسلم..أنا لا أفهم.. ماذا تعنى كلمة بنت.. أنا لست بنت أنا إنسان..

تفتح أمى الباب وتنظر إلى بوجه خال من التعبير.. ثم تغلقه..

سأتزوجه.. واشتغل واكبر.. وأتخلص من هذا الدكتاتور

الغاشم.. وأن أتحرر ذلك يوم غير عادى.. بالتأكيد غير عادى.. وقفت أمام المرأة.. وصرخت.. نظرت إلى وجهى ولمست ملامحى بيدى.. فأنا جميلة.. نعم جميلة قوى.. وبعد أن تأكدت أننى موجودة وفرحت.. وبالتأكيد أن صوتى لازال موجودا.. فقد سمعت صوت صرختى قبل لحظات. لكننى عندما أغادر حجرتى غادرتنى الابتسامة.. فقد تذكرت أننى كنت أنظر إلى المرأة أن أذنا واحدة سمعت صوتى.. هى أذنى.. وأنى احمل ملامح طفلة صغيرة.. تعلمت الكلام قريبا وأنى غادرت أحمل ذاك الوجه الذى لا أملك غيره.. وعملت أيضا أدواتى اليومية كراسة واحدة. وقلما واحدا. وصوتا واحدا..

عند الباب.. وجدت أمى قلت لها.. لا تخافى ورفعت بيدى مزلاجا ضخما كانت قد وصفته.

فى الطريق كان ترسم مخيلتى بدقة وجه أمى الذى حمل ابتسامة تنم عن خوف وحزن قلت هذا يوم غير عادى فإنها لم تحمل هذا الوجه من قبل..

لكن عبارة قالتها ظلت ترن فى رأسى (لم تكونى قد

تعلمت الكلام بعد) (لا تخافى) قلتها دون أن أنظر إليها.. خفت أن أضعف أمامها ويجذبنى حبها وأن أعود طفلة لا تعرف الكلام.

ولكننى رجعت إليها فالشمس حارقة والليل رطب والبحر لا يعرف الصخب.. حكيت لها أمى أرتجف.. فأسكنتنى حضنها. مسحت شعرى.. وغنت لى، كان هذا يوم عادى ونظرت إلى عينيها مباشرة هذه المرة من اتساع عينى فى تحدى كنت قد سألت نفسى المرة السابقة.. هل أريده زوجا لى.. أم ماذا؟؟ وتذكرت قولا قالته لى أمى ذات مرة:

إذا أضعت حقك فلا تبكى عليه بعد ذلك؟

كان التحدى سافرا وقادرا على تحريك السعادة داخلى إلى درجة لم أستطع أن أضعف.

الحب مع رجل فاقد الذاكرة

استيقظت ذات صباح على شدو قلبها.. أحبَ هذا الرجل فى لحظة خارجة عن مدار الأرض والمنطق دخلت سالمة!! إلى مصيرها المعتم،

سالمة شابة فى مقتبل العمر لا خبرة عندها ولا دليل، لاذا معها ولا ماء ولا قطرة من كبرياء فى رحلة وعرة الدروب.. خاصمها الشجر.. هجرتها متعة الترحال قال لها البعض مستنكرا:

أنه مغرور، أنانى، أرض رملية غير قابلة للخصوبة، يالك من حمقاء.. أنت الشابة المكتملة مع نصف رجل.. متزوج وعنده أولاد.. إضافة لماضى ليئم وحاضر مريب!!

أفيقى من هذا الوهم قبل أن يصفعك الواقع، فهو رجل هزمته السنين..! إنضمت نفسى سالمة إلى هؤلاء المستتكرين.. وبدأت تعاقب نفلسها قائلة:

كيف هانت نفسى على إلى هذه الدرجة؟!!

رد عليها قلبها: أنه حبك.. وظلت تسترجع ذكرياتها..

ففى المساء كان يأتيها صوته عبر الهاتف (أين أنت؟..) اتصلت مرات ولم أجدك!!

أحدث شىء لا أعرفه؟!!

ما رأيك نسهر الليلة معا..

تغمرها الفرحة.. فلا تسأله.. عن سر اختفائه أياما تعبت من حسابها فهى تخاف معاتبته حتى لا تكون قيدا على حريته أو عبئًا تثقل عواطفه..

وعلى موسيقى راقصة ترتدى أجمل أثوابها.. وتتعطر بأشواقها الجامحة إلى صحبته يستقبلها بالحب والقبلات..

دائمًا كانت تشعر أنه قدرها ونصيبها فى هذه الحياة..

وتتذكر وهى تصافحه بأنها كانت تشعر أنها المرأة التى طالما أنتظرها وتمناها فى الدنيا..

وبحنان وحب تطول سهرتها وتقصر المسافة بين اشتياقها له وسحر اللقاء معه.. بطول الكلام بينهما.. يكسر حواجز الزمان والمكان والحدود.

وبعد العودة لمنزلها.. وبعد أن تصحوا من نومها.. تبحث عن ملامح الرجل الذى همس كلمات الحب ونطقت عيناه بالأشواق..

شىء مختلف.. يحدث له ما بين المساء وإشراق النهار

ففى الصباح تجده رجلا فاقد الذاكرة...

وفى المساء.. معها..

حاولت. وحاولت أن تجمع الصباح والمساء فى جلسة واحدة

لا جدوى

ألم انتظارها فى الصباح...

وفى المساء يأتيها صوته عبر الهاتف

سـالمـة إتصلت مـرات ولم أجـدك؟!! أحـدث شىء لم أعرفه؟!!

ما رأيك هل نسهر الليلة معا..

ترتدى أجمل ملابسها.. وتسرع للقائه..

الغائب

قامت تحضر الطعام.. نادت عليه بأعلى صوت لها قبل أن تجلس.. تعال (كل) لمحت ابتسامته الغائبة.. همت نحوه ووقفت تسأله: (مالك)؟!!

لم يرد عليها وغرس نظرة فى تجاعيد وجهها.. ولمحت وجهه مغبرا وصرخت اتكلم حرام عليك. وهزته بعنف فوجئت ببيت عنكبوت منسوج خلفه، انقبض قلبها ودقت على صدرها بكفها وتركته يتخبط فى الحائط حتى أوشك على الوقوع.. شعرت أن الأرض تتزلزل من تحت قدميها.. أنفاسه تحوطه بها وتثبتها من الوقوع.. وظلت تسحب جلبابه تنفض به الغبار الذى ملأ حلقها سلعت وبصقت،

ونثرت ماء على وجهه ورأسه ووضعته على سرير من
الجريد تحت عين الشمس الحمراء.. كى يجف ما به من
ماء وأخذت تتطلع إلى وجهه الباسم وعيناه اللامعة
وحملقت عيناها فى رؤيته فوجدته داخل برواز خشبى
ومحاصر بزجاج - صورة - حزنت وهزت رأسها معاتبة إياه
على رحيله.. وسقطت دموعها على خطوط تجاعيد وجهها
ثم نظرت مرة أخرى إلى صورته.. جفت من عليها الماء..
فظهرت ابتسامة كبيرة ملأت وجهه وشمت رائحته التى
مازالت فى البيت.. وتنهدت بارتياح.. ودقت مسمارا فى
مكان أخر وعلقته على الحائط ودقت مسمارًا آخر بجواره
وتمنت أن تتعلق بجواره.

يوم الحزن العظيم

أودعت فاطمة زوجها التراب.. وذهبت إلى بيتها مكسورة الخاطر. حزينة القلب.. وملأت السواد فى كل ركن من أركان منزلها، حتى ملايات السرير وقررت ألا تخلع السواد طول عمرها..

فى الليل حينما خلا المنزل من المقربين جمعت أولادها الأربعة وقالت لهم: وملئ عيونها دموع: انتم كل ما أملك فى هذه الدنيا.. أنتم ثروة حياتى لن يدخل هذا البيت رجل بعد أبيكم.. لن تحتاجوا معاشه يكفينا وزيادة إن شاء الله.

ذهب الأولاد إلى فراشهم وسهرت فاطمة مع ذكرياتها

وعذبها السهر والسهاد فانكفأت على صورة زوجها تحتضنها.. بينما أخذتها غفلة من نوم أو هدها التعب والحزن فغابت عن الوجود.

وتابع المعزون يوما بعد يوم من أقربائها وأصدقاء زوجها وزملائه فى العمل وكلهم يبدون الأسف والحزن.

ظلت فاطمة متحشة فى السواد وعيناها تزرفان الدمع تلقائيا شاردة دائما.

وكعادة المعزين.. كل منهم يقول لها: لا تحملوهما كلنا فى خدمتكم المرحوم كان أخا وصديقا لنا وكان الأستاذ أحمد المدير بالشركة التى كان يعمل فيها المرحوم.. ضمن المعزيين قال لها: يا ست فاطمة لا تحملى هما أنت وأولادك فى أعيننا.. نحن بدأنا فى اتخاذ الإجراءات لصرف المعاش.. وقد قررنا صرف مائة جنيه فورا إلى أن يتم التسوية..

وأخرج المبلغ من جيبه وأخذته فاطمة بعين شاكرة حزينة وبعدها بأيام ذهب الأستاذ أحمد إلى عميد الكلية التى يدرس بها الابن الأكبر وأوصاه خيرا به.

وعرف محمد بذلك وقال لأمه: أنه رجل حنون وطيب.

سكتت فاطمة لحظة وتأملت صورة كبيرة لزوجها على الحائط ثم قالت لابنها: أنه كذلك أنهى إجراءات المعاش وسوف نصرفه أول الشهر القادم لا أعرف كيف نرد جميلة.. خالك محمود عجز عما أنجزه هو.. فعلا هو صديق وفى للمرحوم جزاه الله خيرا فينا.

وقال أشرف الابن الثانى أنه كذلك ذهب إلى ناظر مدرستى وأوصاه بى.

وقالت حبيبة الابنة الصغرى.. طنط ماجدة هانم زوجة أنكل أحمد أكثر طيبة منه.. فقد دفعت لى القسط الثانى من مصروفات المدرسة.

وتمتمت فاطمة ثم قالت سنزورها اليوم هى وأولادها لأن زوجها انتدب للعمل بالخليج.. لابد قبل سفرهم أن نشكرهم ونودعهم.. فهم أفضل من أقارب لنا وترقرقت عيناها بالدموع.. وبعد أن سافر الأستاذ أحمد.. خيم السكون على بيت الأرملة الحسناء، وأحس الأولاد كإحساس أمهم بفراغ أليم، لم يكن يزورهم أحد.. فيما عدا

زيارات متباعدة لبعض الأقارب.. ثم أخذت تقل شيئا فشيئا قالت الأم لأولادها: الغرباء أكثر عطاء من الأقارب.. قال محمد متى يرجع الأستاذ.. هذا الرجل الطيب لقد وحشنا فقد عوضنا الله به عن المرحوم والدى.

ردت فاطمة بعصبية سريعة: ليس كأبيك أحد رحمة الله عليه أحس محمد أنه تجاوز حده.. فنظر إلى أمه بعين كلها اعتذار وإكبار.

مضت شهور قليلة وإذا بالأستاذ أحمد يسأل عليهم بالتليفون ردت فاطمة وبدا عليها الاضطراب: أهلا وسهلا.. حمدا لله على سلامتكم كيف حال الهانم والأنجال.. كل شيء على ما يرام لا ينقصنا سوى الاطمئنان عليكم.

أخذ محمد السماعة من والدته.. عمى لقد مضى تسعة أشهر على غيابك فقال: إنشاء الله بعد ثلاثة أشهر سوف أمضى شهرا بالقاهرة وهى إجازتى السنوية ثم أردف أسأل أمك وإخواتك ماذا تريدون كى أحضره لكم من هنا.

لا نريد شيئا سواك.

وضع محمد السماعة مبتهجا..

فى المساء دخلت فاطمة حجرتها وظل يراودها التفكير فى أمر الأستاذ أحمد لماذا شعرت بفراغ حينما سافر.. ولماذا اضطربت وهى ترد عليه وما دافعه لكل هذا الاهتمام..؟

هل هى صداقته للمرحوم؟ أأنه رجل خير وطيب.

لا ربما لا هذا ولا ذاك.

تأملت ملامحها فى المرآة وتخيلت زوجها منتصب القامة أمامها وكأنه يعتب عليها أو غضبان منها.. أزاحت الكابوس. وقالت:

لن يكون بعد زوجى رجل أخر.. أنها الآن فى السابعة والثلاثين من عمرها وما زالت شابة.. وليكن..

وجاءها صوت أحمد عبر آلاف الأميال موحيا بالحب الاشتياق أخرجى.. من هذه القوقعة التى تحبسين شبابك بداخلها الحزن لا يرجع شيئًا.. تلعثمت فاطمة واضطربت أكثر.

جاراج فى الهواء الطلق

لم يكن لمحمد بركات جاراج، ولكن أصبح صاحب جـاراج، والجـاراج لم يكن لـه مكان ولا كـيـان ولكن محمد يصر على أن له مكانا وكيانا.

ومع إصـرار مـحـمـد واسـتـمـراره على هذه الـفكرة سلم الناس بالأمـر الـواقع الذى ألزمهم به بابتسامته المملوءة طيبة وإصرار.

مـحـمـد قـصـتـه بسـيطة وصـغـيـرة.. هو ريفى من إحـدى قــرى الجـيـزة، نشـأ فى قــرية كـغـيــره من

الفلاحين وورث عن أبيه بضعة قراريط ونما معهما يحاول أن يزيدها فلا تزيد، يحاول أن يعيش منها فتضيق به وبنفسها. ولم يكن محمد بركات فلاحا نشطا لذلك كانت قراريطه لا تنتج كثير بينما قراريط جيرانه وافرة الإنتاج، وبفلسفته الواقعية أدرك حقيقة الأمر. وعرف أنه لا يصلح للأرض ولا الأرض تصلح له.

باع محمد قراريطه القليلة وهاجر إلى القاهرة بالرغم من أن المسافة بين قريته والقاهرة بضعة أميال ولكنها فى عرفه تعد هجرة. قاد حملته.. أى أسرته المكونة من زوجته وأولاده التسعة. ولك أن تقول وأنت مطمئن أن أعمارهم حينئذ تبدأ من أيام إلى تسعة ومع أفراد الحملة سارت الأم تحمل الرضيع على صدرها وتجر بيد اثنين وتحمل ابنتها رابعا ويقول ولدها الأكبر الباقى وهم أربعة أولاد.

وبعد رحلة معاناة وصلوا إلى القاهرة.. بهرتهم

وأخذوا يسألون ويقفزون ويطنطتون كالقردة أو القطط، ومحمد فى المقدمة فارح، باسم، متفائل.

سأله ابنه الأكبر: رايحين فين يا بوى؟!.. نهره محمد (بطشه على وجهه) وقال له أنت مالك. أما حميدة زوجته فقد عرفت مكانها من اليوم الأول، فسلكت معه سلوك الجندى فى المعركة لم ترد. لا تبتئس بل تطيع وتنفذ وتبتسم. فقد اعتادت أن تثق بزوجها وعبقريته على الرغم من أنها كانت لا تريد أن تترك القرية. ولم تكن راغبة أن يبيع زوجها الأرض... ولكنها كعادة المرأة الريفية. قالت فى نفسها: (لابد أن الرجل على حق ولابد أن فى رأسه مشروعا يدر علينا الخير) لم يكن محمد بركات مجردا من الذكاء. فقد رسم خطة فى عقله لم يكشف أمرها لأحد، فى نفس الوقت كان أهل القرية يرثون لحاله ويتعجبون من هذا المجنون الطائش الذى يبيع أرضه. ويأخذ عياله وهم حمل ثقيل إلى

حيث لا يدرى ولا يدرون وقد حاولوا عبثا أن يعرفوا إلى أين هو ذاهب.. وماذا سيعمل؟ كان يهز رأسه ويقول أرض الله واسعة.. فهى بلاد الله لخلق الله.

وسارت حملته من شارع لشارع حتى استقر عند عمارة ضخمة.. ورص أولاده أمام بابها بنظام محكم وحذرهم من إحداث أى ضجة.. وبالغ فحذر الرضيع من أن يطلق نفسا وضحك ودخل العمارة استقبله رجل كبير الوجه والجسم واللسان والرأس، وأجش الصوت له كرش ضخم. سأله ماذا تريد: فأجابه العمل فى خدمتك.. ما اسمك؟ اسمى خدامك بركات نهض الرجل إلى خارج العمارة فوجد الصف الواقف، لا يتحدث ولا يتحرك.. وإيه دول؟! عيلتى يا باشا.. زم الرجل شفتيه وحاول أن يكظم غيظه ولكنه لم يستطع.. أنت جاى بدول يعملوا إيه؟! معلش يا سعادة الباشا إحنا كلنا فى خدمتك...

صمت الرجل قليلا.. ثم انفجرت أساريره

بابتسامة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة ثم قهقهة ثم التفت إليه وأسرته وقال له:

اذهب إلى الجانب القبلى للعمارة.. هناك جراج.. نظفه واغسل العربات التى بداخلها ولن أعطيك أكثر من ثلاثين جنيها فى الشهر.. حاول بركات أن يعترض ولكنه أثر أن يسكت الآن وفى إحدى أركان الجاراج أمر بركات أفراد أسرته أن يستقروا بها.

لم يكن معهم من الفراش إلا حصيرة و(حرام) من الصوف ولحاف قديم وصرة بها بعض الملايات وحسبت حميدة أن الجاراج هو محل العمل وأنهم سيعشون فى مسكن آخر. ولكن بركات فرش الحصيرة وفك الحرام ونشر اللحاف وقال: أحسن من الجحر اللى كنا عايشين فيه.. لم تعترض زوجته.

انصرف الصغار يتأملون السيارات بعيون كلها براءة ودهشة وفرح. وتجرأ أحدهم ولعب فى إحدى السيارات فأحدثت صوتا عنيفا (كلاكس). جرى عليه

بركات ونهره بشدة وعرفوا جميعا منذ هذه اللحظة أن اللعب بأجزاء السيارات محرم.

وأدركوا جميعا حدودهم رغم صغر سنهم وعرفهم المحرم والمباح وأنهم سينامون فى ركن من الجاراج.

وفى همة ونشاط أخذ بركات يزاول عمله وأولاده يساعدونه جهد استطاعتهم وكانت أمام الجاراج أرض فضاء.. كانت حميدة زوجته تجد فيها متنفسا ولأولادها مجالا للعب والجرى بها ذهب بركات لصاحب العمارة وطلب منه أن يحصل على الأجرة من السكان.

قال له صاحب العمارة: هذه ليست شغلتك دى شغلة بواب العمارة بيأخذ عنها أجرا رد بركات: أنا أعملها متطوعا من غير أجر فأنت صاحب فضل على وعلى عيالى.

ضرب الكلام فى دماغ صاحب العمارة.. فقد كان جشعا لا يشبع من المال.. فأحب أن يستوثق أن

بركات لن يأخذ منه أجرا على ذلك.. وقال له بركات أنا خدامك يا باشا بدون أجرة.

وتريث صاحب العمارة.. وعمل بدماغه حسبة سريعة، فهو لديه من اثنين البوابين ففى هذه الحالة يستبقى واحد منهما. ويعزل الآخر هذا الذى لا يكف عن المطالبة بحقوقه ومضايقته بالقوانين ولوائح العمل ويعزل الآخر الفيلسوف الذى لا عمل له إلا قراءة الجرائد وإفساد عقول البوابين. فهى فرصة سانحة للانتقام منهم.. أو بالأخص من سعيد البواب فهو جرثومة يجب التخلص منه حتى يهدأ الجو. وأشرق وجه الرجل صاحب العمارة وربت على كتف بركات وقال: اتفقنا أنت رجل جدع وخدوم وأنا أحب ذلك.

أخذ بركات يقفز من مسكن إلى آخر.. يجمع الأجرة ويقضى هو وأولاده حوائج السكان ويلبى طلباتهم.. بالإضافة لمراعاته لشئون الجاراج.. فاتسع رزقه وتحسنت أحواله.. وأحس بوابا العمارة

بأن بركات منافس لهما وشاركهما أكل عيشهما.. فرفعا الأمر إلى صاحب العمارة فانصرف عنهم ولم يتخذ أى إجراء.. فتصديا لبركات وأولاده وحاولا منهم من دخول العمارة بالقوة.. لأنهم لم يكونوا على علم بما يتم بين صاحب العمارة وبركات من اتفاق.. وأخيرا استبان الأمر لهما وأدركا أن صاحب العمارة ينوى لهما شرا، أو على الأقل ينوى بأحدهما الشر. وعرف سعيد أنه المقصود بذلك.

اختلى سعيد ببركات وأوضح له ما كان خافيا عليه.. وبشهامة أهل الريف وأصالة المنبت.. فكلاهما يطلب رزقا شريفا من خلال عمله. وصاحب العمارة يريد أن يضرب أحدهما بالآخر.

قال بركات لسعيد: دع الأمر عندى وأنا معاك ولن يضيع لنا حق. صحيح أنا راجل كثير العيال وفى حاجة لجنيه واحد يزيد من إيرادى ولكنى راجل لا أقطع رزق آخر.

ذهب بركات لصاحب العمارة: وقال إذا ترك سعيد العمل فى العمارة فلابد أن أتقاضى أجره لأننى أقوم بعمله. استشاط الرجل غضبا وقال لكنك اتفقت معى ألا تتقاضى! نعم.. بشرط ألا يضار إنسان آخر.

مالك انت ومال غيرك؟!!

قال بركات: إحنا فلاحين يا بيه فى القرية عندنا لا نقول هذا، فنحن فى الغيط نشارك بعضنا العمل والرزق وفى المصائب والأفراح..

أحس صاحب العمارة.. بصدمة وبينما كان يتهيأ لطرد بركات.. ظهر سعيد بقامته المديدة ووجهه الصارم وقال له: أنت لا تستطيع أن تأكل حقنا.. تماسك صاحب العمارة أدرك أن موقفه يزداد ضعفا، فقال ملاطفا: أنت وبركات أولادى..لا تغضبا فأنا لا أستطيع الاستغناء عنكما.. وسكت الاثنان.

كان الجاراج خاصا بالسيارات التى يملكها سكان العمارة وليس فيه مجال لسيارات أخرى ولكن بركات

لكثرة علاقاته الطيبة بالناس كانوا يرجونه أن يسمح لهم بمكان فى الجاراج.. فطرأت له فكرة!!

قال لهم:

أقبل سياراتكم على أن تبيت فى الخلاء أمام الجاراج وأنا وأولادى حارس أمين عليها.. ولم تمضى أيام حتى ملأ الخلاء بعشرات السيارات.. ولفتت الظاهرة نظر صاحب العمارة.. قال: هل استوليت على الأرض يا بركات؟!

قال بركات أنها ملك الحكومة، لكنها أمام عمارتى لابد أن أقاسمك الأجر الذى تأخذونه لك الثلث ولى الثلثان:

قال بركات فى غضب وحزم: ولا مليم يا باشا وأخذ الشر يتطاير من عينى بركات مستعرا لا لم يكن هذا ما يتصوره صاحب العمارة الجشع..

أدرك صاحب العمارة الموقف على حقيقته: وقال متمتمًا: جاء كالقطة المغمضة والآن....

ورد بركات مرة أخرى بعنف أرض الحكومة عاوز إيه؟؟!!

استكان صاحب العمارة لم يعاود الكلام الموضوع.. وأخذ بركات يحكى القصة لأصدقائه من بوابى العمارات المجاورة قائلا وهو يضحك مزهوا منتصرا:

هكذا أصبحت صاحب صاحب جاراج فى الهواء الطلق...

وصل الابن الأكبر من المدرسة فناداه: يا محمود هات ميه للعربية وخلى أخوك مصطفى ينظف العربية البيجو الحمراء.

قهوة عم أحمد

كان أبى يحكى لى وأنا صغيرة حكايات عن عم أحمد القهوجى.. فحكاياته مليئة بالحب والتضحية فعم أحمد قليل الكلام ومع ذلك ملىء بالحكمة وأقواله بليغة بالإضافة إلى أنه رجل مرح محب للهزار وديع راجح العقل يعتز بوطنيته العالية.

رأيته وهو يغنى فى المساء بانسجام فى قهوته ولكن ثمة مسحة حزن سيطرت عليه فترقرقت عيناه بالدموع.. وسكت وغرق فى تفكير عميق وبدأ كأنه يعبر قناطر أحلام شفافه بعيدة، كنت أرى أبى أحيانا

جالسا فى قهوة عم أحمد مع جمع من أصدقائه ملتفين حوله يحكى لهم مغامراته فى الحرب والصيد ويسرد لهم الأخبار اليومية يعلق ويحلل..

وفى إحدى الليالى قال لى أبى دخل المقهى رجل غريب على جلستهم ألقى التحية ثم ارتمى بجسده الذى يشبه الدب فى أول كرسى صادفه.

رد عم أحمد والجالسين التحية على الرجل ثم أخذ القهوجى يتفصحه باهتمام وقال له تشرب آية؟

قهوة؟ أم شارى؟ أم... أم..

أدرك عم أحمد بعد فترة قليلة أن هذا الرجل لم يكن غريبا عليه بل هو.. هو.. أيوه المقدم محمد الذى كان رئيس كتيبته فى أثناء الحرب.

أطلق عم أحمد ضحكة عالية كلها حب وفرحة مهللا يا صاحبى: أعذرنى من ضعف الذاكرة.

أخد عم أحمد يشد فى لحيته وكأنه استيقظ من حلم بعيد وهمهم فى نفسه قائلا:

أن أحوال الدنيا تقلب الموازين أحيانا فتسبب النسيان والاضطراب والقلق فى النفوس وأخذ رشفة من فنجان القهوة أمامه بعد أن اطمأنت نفسه قليلا وأخذ آلة العود التى طالما كان يعزف ويغنى عليها أغنية من أغانيه الحزينة.

أخذ عم أحمد يعزف لحنا أقرب إلى العنف والثورة من إلى الحزن والكآبة. وظل يشدو ذكريات بصوت حنون حزين ومفرحا فى آن واحد.

ثم التفت إلى صاحبه وسأله عن حالة وعرفه على زبائن القهوة. الذين أدمنوا الجلوس معه ليتخففوا من أعباء الحياة بالسماع له فهم بسطاء مثله قال أعزف وأغنى لنفسى فمن أعجبه ذلك منهم جلس معى ومن لم يعجبه يتركنى وحالى.

قال المقدم محمود:

كلنا فى الهم سويا. هات القهوة فقلبى يشعر بالمودة لك ولهم وكان ما قدمه عم أحمد القهوجى

فى تلك الليلة مؤثرا للغاية حتى أن العصافير توافدت ورفرفت بأجنحتها وكأنها تريد أن تمسى بالخير على عم أحمد قبل أن تؤى إلى أعشاشها ناعمة بهدهداته الحنون.

وفاضت القهوة بالحيوية والنشاط وظل المقدم محمود يسحب دخان الشيشة بشراهة إلى صميم رئتيه.

وأخيرا كاد الصباح أن يشرق وتنبه عم أحمد وكل الحاضرين، فهموا منصرفين قائلين جميعا.

عشت يا عم أحمد.. عشت.. فأنت إنسان بقلب ملاك فنان عبقرى

وقال المقدم محمود.

أثلجت صدرى.. وصفيت ذهنى.. وخدرت أعصابى بالذكريات البعيدة.

نعم اليوم حولت حياتى إلى واحة حب وطمأنينة.. بعد أن كانت صحراء قاحلة قبيحة ومرت لحظة

صمت على عم أحمد مع أفكاره هازا رأسه ثم نظر إلى الجميع نظرة وركز بها على صديقه القديم صاحب مشوار الكفاح معه. ضمه إلى صدره بقوة ومسح عينيه الدامعتين وقال:

اليوم كانت زيارتك مفاجأة لى.. والأعمار بيد الله.

والقدر لا يفرق بين كبير وصغير واللقاء نصيب.

طوفان المشاعر

ولأن النهاية دائما هى الأقرب. وهى فى حد ذاتها الذاكرة التى لا تمحى فإنها سوف تبدأ من النهاية اليوم وهى تتعذب وتتساقط قطرة قطرة، ونبضا نبضا، وأقصى ما كانت تتمناه من الله ألا يزيد عليها الحالة فى أيام العذاب..

أى عذاب رهيب يفوق الخيال لاستقبالها هذا القرار.. قرار الانفصال.. سألت نفسها وهى تتوجه للقائه..

دائما يكذب عليها الجميع وتصدقهم.. لا لغباء

متأصل فى طبعها ولكن لأنها تحب التصديق له. ولأنها تعودت أن تعيش به وعليه.. سائحة حلا أحوالها ذاكرة الله كثيرا .. فبالذاكرة ينكشف دائما وبال الغفلة.

وأخيرا فهمت أنه ليس ملاك كما كانت متوهمة بل هى كائن لا من لحم ولا من دم وأعضاء الفرق بينها وبينه أنها أكثر جرأة منه فى قدرتها على الصدق.. وهى لا تنكر أنها تشبهه أحيانا رغم نزوعها الداخلى المخلص للطهر والعفاف. ولكنها لم تبح ولو هامة باشتهائه لها فى نفس الأحيان. وإلى أن تكتفى هى باسترجاع بعض الأحاديث والنقاط بعض الصور لبعض ذكريات التى تعود أو لبعض ذكريات التى تعود أو لبعض شهور سابقة قد ربطت بينهما منذ أول لقاء.. مشاعر حب ولهفة كبرت مع الأيام وكان يزداد لهفتها اليوم بعد الآخر دون إقفال.

إلا أنها ما كادت أن تراه اليوم حتى انفجرت باكية.. وقابل بكائها بقسوة وفتور واستنكار وعصبية حادة ثم سألها لماذا البكاء؟؟

وبعد أسبوع من الفرقة.. سمعت صوته عبر الهاتف.

أأنت بخير.. إذا احتجت شيء اطلبيني بالأمس كانت كلمة واحدة تسعدها.. الآن فلا قيمة لأى حوار.. فإنها تتبين بأنها خدعت وأن ما صدقته كان كذبا فأنها غالبا ما تحسن التصرف المضاد فى مواجهة الآخرين سواء أخفيت غضبها أن أعلنته فى ثورة جامحة حينما يتملكها شيطانها اللعين ولابد من الافتراق لاستحالة امتزاج الصدق بالكذب فالحب عندها فى جوهرة أرض وسماء.. وكان حبها له قربانا إلى الله كانت تتمنى من الله أن يكون لها حسن الختام.

صدفة

هجر محمد الدكان واعتصم فى منزله حينما تأكد أن الفئران قد أكلت كل ما فيه، حتى الأرفف الخشبية، ولم يهتم حتى أن يلقى نظرة عليه وظل ماكثا فى منزله دون عمل.

أما زوجته فاطمة فعلى الرّغم مما كان يعانيه زوجها من بطالة.. فهى دائما كانت فى حالة شجار ونكد معه. أما الآن فإنها تبحث عن وسيلة لإنقاذه من الحّالة التى يعانى منها.

فعندما فشل محمد فى القضاء على الفئران التى

قضت على كل ما فى دكانه من بضاعة وكذاك حالة الكساد التى عمت على تجارته. قرر أن يغير نشاطه! إلى عمل آخر وأخذ يستشير أصدقائه وأصحابه ولكنهم لم يساعدوه فى التفكير أو إيجاد عمل آخر يحقق له عائد مادى لسد نفقات الحياة..

ومرت الأيام به طويلا وحل عليه الصيف واهتدى إلى فكرة بأن يبعد عن البيت وعن زوجته ويخرج عن عزلته..

جلس محمد على مقهى كبير بالميدان، وهناك رأى جماعة من السياح الأحانب يصورون كل ما يقع على أعينهم بآلة تصوير مدهشة.. هنا أشرقت فى ذهنه فكرة سريعة وهو يتطلع إيهم فى ذهول وانبهار وتغلفت الفكرة حتى أعماقه وجعلته يردد فى نفسه (الحمد لله الحمد لله) وجدتها صنعة التصوير.

ذهب محمد بسرعة إلى منزله.. تغمره الفرحة والسعادة وقال لزوجته.. سأغير نشاطى من بقال إلى استوديو تصوير.. نظرت زوجته إليه بحدة واستنكار

ثم صاحت غاضبة.

أين أنت من التصوير؟!! ومن الذى أشار إليك بهذه الفكرة المجنونة؟!!

أنصت لى يا زوجى المجنون.. اذهب إلى دكانك وارجع إلى عملك المألوف.. الرزق من عند الله.. وما يرزقنا به الله يكفينا..

لا تجرى يا محمد وراء أفكار مجنونة.. البيت والأولاد فى حاجة إليك وإلى عملك.. رفض محمد سماع نصيحة زوجته وقرر ألا يرجع إلى البقالة مرة أخرى كما أصر على أن يترك القرية ويذهب إلى القاهرة.

وحاولت فاطمة زوجته أن تمنعه.. ولكن فكرة التصوير سيطرت عليه تماما.. وفى الصباح سافر محمد إلى القاهرة واشترى آلة تصوير ورجع بها إلى بلدته وحول دكانه إلى استوديو تصوير وأصبح مصورا بدلا من بقالا.

تصور محمد أن تصوير شئ لا يحتاج إلى دراسة أو تعليم بالإضافة للخبرة. فهو لم يعرف كيف يستخدم آلة التصوير.. وفشلت محاولته بشدة وأخذت زوجته تؤنبه قائلة له:

أنت أخذت لنفسك مهنة دون سابق معرفة لك بها. كفى فشل ارجع إلى عملك وكفانا تهريج ولكن محمد أصر على عمله مصورا ولكن هذه المرة أخذ يدرس ويقرأ من التصوير وأخذته وجوه القرويين الذين يصورهم تظهر مرة مشرقة منيرة وأخرى قاتمة معتمة، فيخرج من عنده صاحب الصورة المشرقة ضاحكا ويعود إلى بيته فخورا بصورته. ويغادره صاحب الصورة القاتمة منزعجا ساخطا عليه.

واكتسب محمد بعد مدة من عمله خبرة وحنكة واتسعت شهرته فى القرية وجذبت إليه انتباه السيدات والآنسات مما اضطره إلى أن يمارس العمل ليلا ونهارا بحب وفرحة..

ونظر محمد فى يوم إلى زوجته فراقه حسنها وجماليها وأراد أن يصورها لتبقى صورتها خالدة شاهدة على كفاءته. ولكن زوجته رفضت فى البداية، وتحت إصراره ورغبته القوية استجابت لمعسول كلامه وقام بتصويرها.

وقفت فاطمة أمام المرآة تتزين ثم جلست على كرسى يبعد مسافة بينه وبين آلة التصوير مستسلمة ليدى زوجها الفنان من وجهة نظرة.

ارتفع فجأة صوت الفنان محمد يشق سكون الطبيعة بنبرة رفيعة من ظلمات عالمة ليشد انتباه زوجته ويطلب منها الابتسام.

تبسمت فاطمة:

يصيح محمد: إبتسمى أكثر يا زوجتى الحبيبة

وتحاول فاطمة أن تبتسم كى ترضى زوجها فكانت ابتسامة مفتعلة أشبه بإشراقة شمس من وراء غيوم.

ينظر محمد إلى زوجته يقول لها: انتهى.. وعندما

شاهدت فاطمة صورتها انبهرت وفرحت كثيرا..
وقالت لزوجها الآن آمنت بأنك فى الطريق السليم
وشكرته تأثر محمد بكلمات زوجته واستمر فى عمله
بحب ورفع عينه إلى السماء وتمتم بكلمات مبهجة.

الناس اتنورت

قال العمدة غاضبا: الواد سيد مجاش ليه، عاوزه حالال.. رد الغفير في هدوء وسرور:

مسافر البندر (القاهرة) عنده شغل ضروري. اشتد غضب العمدة وقال صارخا: أنا قلت يجي دلوقت.. يعني يجي دلوقت هاته بالقوة امنعه من السفر.

وجاء رد الغفير بالبرود نفسه: ما اقدرش يا حضرة العمدة الدنيا بقيت غير الدنيا والزمن اتغير.. صدمة هذه الكلمة العمدة وهزته أيضا.. وظل يغلي

بداخله وقال لنفسه حتى سيد ابن أبو طلبة.. ابعت له ما يسألش.. ولفت رجله على الأخرى وتنبه أن الخبر لا يزال أمامه فالتفت إليه بغيظ وقال يوبخه: روح امشى من قدامى... غور.

انصرف الغفير واختلى العمدة لنفسه وأخذ يرجع بتفكيره منذ أربعين سنة مضت وهو يحكم هذه القرية: كانت كلمته قانون سارى عليهم بلا معارض وإرادته لا يعقب عليها.. وعلى مدى هذه الأعوام لم يرفع أحد رأسه أمامه. فحينما كان يمشى فى أزقاتها وحواريها كانت المارة تخلوا تماما.. النساء يلمحنه من بعيد فيدخلن بيوتهن.. كذا الرجال يخلون الطريق له.. فيصرخ بطريقة هستيرية: كنت السيد المطاع.. ماذا جرى الآن؟.

إذا أمر.. أوطلب شىء.. طلب منه إبداء الأسباب.. يا حسرة يا ولاد إنه كعادة العمدة يملك مجموعة من الفدادين.. كانت تزرع دون أن يدفع للفلاحين أجرة عملهم فكان أهل القرية يتطوعون للعمل عنده وفى

أرضـــه.. والآن مـــاذا دهاهم هؤلاء الفـــلاحـــين الملاعبين؟! يريدون أن يأخذوا أجرة نظير عملهم فى أرضى، أرض العمدة، عمدتهم فعلا الدنيا انقلب حالها والناس اتغيرت.

أحس العـمـدة كـأنه يخـتنق وصـرخ: يا واد يا محمود.. هات لى فنجان قهوة حالا وهرول محمود بتنفيذ أمر العمدة.. فأخذ العمدة يتأمله وهو يجرى وقال بيه وبين نفسه ده هو الوحيد الـ ما تغيرش.. وأحس بشىء من الرضا.. وأشرق فى وجهه خيط ضعيف من الابتسامة وبينما هو منصرف لتأملاته أيقظه صوت صديقه الشيخ عبد الحميد بتحية الصباح وهش العمدة إلى اللقائه وأفسح له مكانا بجواره...

جلس الشيخ عبد الحميد وأراح عصاه إلى جواره وأخرج من جيبه علبة صغيرة من الصفيح وقال: تتشق يا حضرة العمدة.

ضحك العمدة فى مرارة وقال: نشوق إيه يا شيخ عبد الحميد.. انت الـ فاضل من أهل زمان رد الشيخ عبد الحميد بعد أن سعل بشدة: ناس قللات الأدب.. الدنيا اتغيرت خلاص: وأنا جاى دلوقت الواد أبو محجوب كان قاعد هو وشلة صغار من المدارس رميت عليهم السلام فلم يقف أحد منهم.. مابقاش لنا عيش فى البلد دى يا حضرة العمدة.. قال العمدة ردا عليه: ده أنا بعت الغفير للسيد أبو طلبة ما جاش.. قال إيه حضرته مسافر البندر من إمتى أبو طلبة بيروح البندر؟

وأضاف فيه تصميم استمد من جهله: البلد دى لازم تتربى.. هتربى مين ولا مين يا عمدة؟ دى البلد كلها بقيت كدة.. انت سمعت اللى جرى.. هيشيلوا العمد كلهم ويخلوهم بالانتخاب..

بهت العمدة وكأن كلام الشيخ عبد الحميد خنجرا مسموما أصابه.. بالانتخاب.. يعنى شوية الفلاحين دول.. ولم يتم كلامه إذ قاطعه الشيخ عبد الحميد..

مـا بقوش شـوية فـلاحـين يا حـضـرة العـمـدة ده كـان زمـان.. دلوقت دول ولا مـدارس وكـتـيـر راح منهم الجـامـعـة فى البندر.. دول اتعلمـوا واتنوروا.. راحت علينـا احنا خـلاص.. إحنا ناس عـجـزنا عيشـين فى دنيـا غـيـر دنيـتهم.. يله هو احنا هـاناخد زمنا وزمن غيرنا.

ولم يهضم العـمـدة هذا الكلام بل أزعـجه أكثر أن قائله هو الشيخ عبد الحميد.. ولم يجد مـا يقوله أن يرد على كلامه فأسـر السكوت والتأمل من جديد فى موقفه.. بينما استطرد الشيخ عبد الحميد سيد أبو طلبة مرشح مفسه فى العمودية:

كانت الكارثة القـاضيـة التى أصـابت العـمـدة علت على وجـهـه غـبـرة من حـزن عظيم.. وجـاء مـحـمـد بالقهوة..

وسأل العمدة محمود؟؟ هو صحيح سيد أبو طلبة هيرشح نفسه للعمودية؟

رد محمود بيقولوا كده يا جناب العمدة؟ يعنى هينتخبوا يبقى عمدة بدالى؟ •

والله يا حضرة العمدة الواحد ما بيعرف الناس دى مين.. يعنى أبو طلبة هيبقى عمدة مش مخسر البلد دى إلا أولاد المدارس دول عاملين نادى.. قاعدين فيه بيتكلموا عن السياسة والعلم.. وحاجات كده مش فاهمها.

عاوز شيخ الغفر يقفل النادى. ما يقدرش يا عمدة عندهم تصريح رسمى من الحكومة.. الدنيا اتغيرت.. مرة تانية الكلمة اللعينة بتنزل على ودنى زى القدر الأعمى ونادى العمدة على أولاده الخمسة وهم مكتملون الرجولة أصحاب أجسام فارعة وعضلات قوية وقال لهم: دريتم بالحاصل بالقرية؟ ابن أبو طلبة مرشح نفسه فى العمودية بدالى بيقولوا ولاد المدارس والجامعات بيسعدوه.. أنا عارف العيال دول بيكرهونى.. أنا عاوزكم تقفلوا النادى اللى بيقعدوا فيه، كسروه، اضربوهم أو اقتلوهم نظر

أولاده الشباب بعضهم إلى بعض ولم ينطقوا بكلمة..
قال لهم الأب مرة أخرى صارخا:

انتم رجاله انتم؟ رد أكبرهم رجالة ونص يابا ولكن.. لكن إيه يا ولد انتم خايفين منهم؟ لا إحنا مش خايفين.. لكن الدنيا.. مش زى زمان.. اتغيرت مش كده!!

زمجر العمدة: امشوا من قدامى يا خيبتى فيكم لو كنتم بنات كان أحسن.. حتى أولادى اللى من صلبى.. وصديق عمرى الشيخ عبد الحميد.. وفرت من عينه دمعة..

ميراث أجدادى وآبائى قريتى تروح منى عشان إيه.. الانتخاب ده يا الله وما بقى إلى وجه الله.

الإحساس الخالد

يوم يمضى.. آخر يجئ.. وعجلة الحياة بنا تدور.. والعمل لا يتوقف.. نبحث عن السعادة تارة، ونذوق الأحزان والآلام مرارا.. لنجد أنفسنا إذا ما استوقفنا أمرا حزينا.. وتبعثرت أحلامنا..

لتحول عقولنا وقلوبنا إلى أشلاء مبعثرة تذروها الرياح.. ورغم هذا كله نعيش على أمل.. أن تشرق الشمس من جديد..

عاشت أول قصة حب فى حياتها لم تدم أكثر من سنة حياة زوجية دامت أكثر من عشرين عاما..

اقتربا.. ابتعدا.. وفى لحظة أصر القدر على النهاية.

أصبحت أرملة وثلاثة أبناء..

مسكينة شاردة الذهن.. صامتة معظم وقتها. فشلت المحاولات لإخراجها من العزلة التى فرضتها على نفسها قضت حياتها هكذا.. تشعر بنيران تحرق صدرها وكيانها ووجودها وهى مازالت فى ريعان شبابها.

مضت أيامها أكثر من طويلة.. ثقيلة.. تحملتها بصعوبة ومعاناة بالغة.. يراودها بين الحين والآخر حلم تحقيق ما كانت تريد..

فى يوم عادى.. وجدت نفسها متلبسة بمشاعر قوية.. تراه لأول مرة فى حياتها وكأنها رأته منذ سنوات كبيرة. وتعانق حلمها بحاضرها.. هى سعيدة ترى نفسها فرحانة. تريد البقاء معه.. لا تريد العودة إلى المنزل برغم أن علاقتهما لم تكن أكثر من ساعات عمرها وهى فى طريقها للعودة إلى منزلها..

لم تشعـر سـوى بإحسـاس هو أن طوفان خـارق بأنها عن بعد لا تدرك مداه أو قوته.

دخلت حجرتها وغابت فى رحلة بكاء شديدة...

آه أو يأتيـها النوم الآن.. تتمنى أن يتوقف عقلهـا عن هذا الحلم المـجنون. نعم حلمهـا الذى تمنتـه أن يكون حقيقة وتهب نفسها للحياة والحقيقة والواقع.

مجموعة صرخة لحياة الحضرى

قراءة نقدية للدكتور مدحت الجيار

هى المجموعة الأولى لحياة الحضرى، ولكنها جربت قبل ذلك كتابة القصص القصيرة للأطفال فنشرت (حصان)، و(الشمس الذهبية) و(العروسة تفكر) حيث عشقت فى البداية الكتابة للأطفال. لأنها نوع من الكتابة استغرق من طفولتها الكثير. ولا تزال مسحة من هذه الطفولة بين جنبات قصصها القصيرة فى مجموعة الصرخة التى نحن بصددها الآن.

وتحتوى هذه المجموعة على ثمانى عشرة قصة بين القصيرة والقصيرة جدا واللقطة والمشهد.

فلدينا بالترتيب التى الذى ارتضيته الكاتبة

(صرخة/ ترانيم حزينة) (لعبة الأيام) (حلم الفرح) (زهرة الموت)، (ذكريات طفلة صغيرة) (سنتقابل فى السماء) (قلب أم) (نداء المجهول) (الرجل المسحور) (نغمات هامسة) (مجرد بنت)، (الحب من رجل فاقد الذاكرة) (الغائب) (يوم الحزن العظيم)(جاراج) (قهوة عم أحمد) (طوفان المشاعر).

وتظهر هذه القصص من عناوينها هذا الاحتفال بقضايا الموت والفقد، والحب، والصراع الاجتماعى المستمر)حيث تعالج حياة الحضرى هذه القضايا فى صيغ سردية متنوعة. والواضح أن اللقطات هى الأساس السردى لديها، حيث تلتقط الفكرة أو المشهد وتعالجه معجبة به. ونكتشف هذا الإعجاب من سيطرة المشهد عليها، ومن تكرار مشاهد الاحتفال بالموت فى أكثر من قصة من هذه القصص.

وتظهر البطلة فى حالة تمرد دائم على وضع البنت مقارنا بوضع الولد، فى الملبس والسلوك

والحرية التى تكاد تكون مطلقة له، فى حين تحبس (المرأة/ البنت)لمجرد أنها أنثى. نلمح هذا التمرد على الأسرة فى انتقاء الخطيب ورفض خطبتهم أو خطيبهم. ولكنها متمردة عاقلة لا تخطئ ولا تتجاوز حدودها مع والدتها على سبيل المثال. كما فى قصة مجرد بنت.

وقد تصرخ صرخة عالية لتتخلص من كل أوجاع القهر واستلاب الماضى وذكرياته لها. وتتوازى الصرخة بالتطهر النفسى والتطهر الجسدى فى البحر كما فى قصة صرخة.

وتدخل الكاتبة فى حالة شعرية فى بعض القصص وتذوب فى لغتها بصرف النظر عن وضوح المشهد فنجدها تلتقط لحظات طفولية حزينة ومفرحة لكنها تتعامل معها كلحظات شعرية بدائية بسيطة تجعل بطلها طفلة راوية وأطفالا (يمرون أمامه يركلون بقع المطر الممتدة على الأرض بأقدامهم). وتشرق

الشـمس فى النهـاية رغم عنوان القـصـة (ترانيم حزينة).

كذلك نجدها فى لعبة الأيام وهى القصة الوحيدة التى تستدعى فيها محفوظها الشعرى. وتدخل فى اللحظة الشعرية نفسها فى وادى الملوك حيث الحبيب تستجمع ذاكرتها الشعرية لتسجل لحظة مهمة (صارت بجسدى رعشة شديدة وتوثقت قبضتى بالرمل وقرأت وجها عتيقا فى ذاكرة المتاهة ووجوه وعربات الخيول ولوحة النوم ورجال يأتون من البحر بمنجنيق ورايات القراصنة وسمعته يقول ولأنه ينادى اللامحدود: ازرعينى أيتها الرغبة توحدى فى الماء...).

وهذه البنت المتمردة تحلم ككل بنت فى قصة حلم الفرح (حينما يتزوجنى عريس سوف يمنحنى طفلا سأتشبث به. نعم فهو ابنى وطفلى الحبيب) كذلك نراها فى قصة تالية (نغمات هامسة).

ونرى الساردة المتمردة تقبع فى هذوءه وتستسلم وهى ترصد عالم الموت بتفاصيله فى مجموعة كبيرة من قصص هذه المجموعة الثمانية عشرة ابتداء من (زهرة الموت) و(سنتقابل فى السماء) (الغائب) (يوم الحزن العظيم) كل هذه القصص تدور حول الموت بأساليب متنوعة منذ استراح البطل على جدار مدفن طفلة صغيرة ويسكن بعد ذلك قبرًا ثم أخت الجدة التى تنتظر أختها الميتة فى (سنتقابل فى السماء) ثم حادث التصادم وموت رجل مجهول ليس خو الغائب المنتظر فى ذاكرة الساردة فى قصة (الغائب) وليس هو (يوم الحزن العظيم) الممزوج بمشقة الإجراءات الإدارية.

ولكنها تصر فى كل ذكريات الطفولة على الموت وعلى النسيان والفقد. وإن كانت تعوضه ببعض الفرح وبعض الأمل، كما فى قصة (طوفان المشاعر).

هى كالطفلة الحزينة تلتقط عالما سحريا أيضا

عالما يخاطب المجهول، حين نفقد الأمل فيه أو حين نفقد القدرة على تحقيق الأحلام. إنه عالم السحر، وعالمْ وشوشة الودع، وضرب الرمل. لجأت إليه بطلات بعض القصص لجلب النفع ودفع الضرر. ولكنها قصص تنتهى بلا أمل بالقطع، مثل (الرجل المسحور) الذى مات فى نهاية القصة وظل يلاحق البطلة حتى بعد موته.

ولا تنسى الساردة فى النهاية أن تدخل إلى المعترك الاجتماعى لتناقش قضايا الهجرة من الريف والاستيطان فى القاهرة والدخول الطفيلية لأسر البوابين وحراس الجراجات والبيوت المفتوحة بلا باب أو حائط. وتعالج قضايا متنوعة أخرى خلال ثمانى عشرة قصة قصيرة.

أما لغة النصوص، فهى بين الفصحى البسيطة والفصحى الشعرية.. ولكن الكاتبة تقبض على النصوص بيد من حديد حيث تسيطر لغتها على لغة

كل النصـوص، ويسـيطر العـصف على الحـوار كـمـا يسـيطـر الراوى العليم بكل شىء الـذى نراه مـتـوحـدا فى بعض السياقات ببطل أو ببطلة القصة

إنها المـجموعة الأولى تقدمها لنا حياة الحضرى، وننتظر منها الكثير

أ . د . مدحت الجيار

أستاذ النقد الأدبى

جامعة الزقازيق

الفهـرس

صرخة ٣
ترانيم حزينة ٨
لعبة الأيام ١٠
حلم الفرح ١٣
زهرة الموت ١٦
ذكريت طفله صغيرة ١٨
سنتقابل فى السماء ٢١
قلب أم ٢٣
نداء المجهول ٢٥
الرجل المسحور ٢٨
نغمات هامسة ٣٠
مجرد بنت ٣٣
الحب مع رجل فاقد الذاكرة ٤٠
الغائب ٤٤
يوم الحزن العظيم ٤٦

جاراج فى الهواء الطلق ٥١
قهوة عم أحمد ٦٢
طوفان المشاعر ٦٧
صدفة ٧٠
الناس اتنورت ٧٦
الإحساس الخالد ٨٣
مجموعة صرخة لحياة الحضرى قراءة نقدية للدكتور مدحت الجيار ٨٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٠٣٣ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8974 - X